أزياء الشابات في لبنان بين الغواية والستر

شهادة شخصية ورؤية تحليلية

رجاء نعمة(*)

ذاكرة الأزياء

ما من زي واحد شائع في لبنان. هناك أزياء عديدة تتجاور، وتختلف بقوة، باختلاف المكان الذي تسير فيه الشابات والوقت والمناسبات. يعج الشارع اللبناني، لا سيما كورنيش المنارة، بموزاييك من الملابس يدعو إلى اليقين بأن حرية ما على قدر كبير من الأصالة والتجذر، وخارج التقليعات، يتمتع بها سكان هذا البلد الصغير.

كباحثة، يتصل اهتمامي بالأزياء، بتغيراتها المتعاقبة التي شهدتُها أو تناهت لي بالسماع منذ أن فتحت عيني على الحياة. وقد وجدت في هذه الشهادة فرصة لأعرض تطورها في لبنان انطلاقاً من مكان محدد هو مدينتي صور؛ وأبدي وجهة نظري بشأن العلاقة التي تربط أنماطها بتغيرات أخرى سياسية، ثقافية وإيديولوجية؛ محلية جرت أم تجري في السياق العالمي.أما سبب انطلاقي في هذا المقال البحثي من «صور» فلا يرجع إلى أنها فقط مدينتي، بل لأن هذه المدينة تشكل نموذجاً حياً للتغيرات التي أشرت إليها؛ نموذج إن لم يكن حصرياً فلعله من أكثرها

(*) روائية و باحثة في اللغويات والتحليل النفسي للأدب

مدعاة للتأمل. كما تجدر الإشارة إلى أني لا أضع نفسي خارج الزي وأهوائه. فأنا، أسوة بنساء جيلي، كنت وما أزال معنية بالأزياء وتقلّباتها، مستهلكة ومشاهدة في آن معاً.

لا بد لأي باحث في الزي ودلالاته أن يميز بينه وبين الملبس. ففيما يلبي الملبس احتياجات أساسية كالستر والوقاية من المناخ، يتجاوز الزي (وتوابعه من إكسسوارات وزينة) الحاجة الأولية ويتصل بدوافع أكثر عمقاً وتعقيداً تصب في الحيز الجمالي والنفسي والثقافي بالمعنى الواسع .

فللزي شكل ومضمون. وله رسالة، مرسِل ومرسَل إليه. وله دلالات. وكلما تعددت رسائل الزي والجهات المرسل إليها كان مضمونه كثيفاً معقداً وكذلك الأمر دلالاته. لو قابلنا رجلاً يرتدي بذلة رسمية لما استوقفنا زيه المألوف؛ لكن أن نقابل قسيساً إنجيلياً يلبس البذلة ذاتها فلا بد أن تردّنا هذه إلى ثورة البروتستنتية على الكاثوليكية وعلى مظاهر الأبهة لملابس كهنوتها. وعليه لا تقف رسالة الزي عند من يتزيا به، بل تنطلق منه إلى متلقٍّ خارج عنه لا بد أن يحدث في نفسه أثراً ما بواسطة ما يلبس. مثالاً على ذلك فإن مايوه السباحة كملبس يكاد يكتفي بالسابحة كمرسِل ومرسَل إليه نظراً لأنه يحقق رفاهية تخص صاحبته وحدها. على أن مضمون المايوه نفسه ودلالته يتغيران لو لبسته الشابة ذاتها أمام اللجنة الفاحصة لانتخاب ملكات الجمال.

في عالم الدلالات لا يكتفي الدالّ (ما يعنيه الزي هنا) بذاته بل تلزمه عناصر ودلالات مغايرة تمنحه الأبعاد الوافية لما يدل عليه. على سبيل المثال إذا ما خرجت امرأة شبه عارية في الشارع اندرج سلوكها في الشاذ الذي قد يستدعي إدخالها المصح؛ أما أن تقوم زنجية في الأدغال بذلك، فيندرج سلوكها في التلقائي. من هنا فإن قراءة أزياء الشابات اليوم تكتسب مفهومية أكثر شمولية إذا ما قورنت بما سبقها في مطلع القرن العشرين مثلاً، أو أو في الستينات والسبعينات منه؛ مراحل ستشكل في هذه الشهادة محطات مفصلية وخلفية ثقافية وحتى إيديولوجية تحكمت وتتحكم بانتشار زي ما: ظهوره، اختفاؤه، أو عودته.

لا يمكن فصل الزي عن انتشاره أنماطاً وكمّاً. فالموضة التي كانت في السابق وقفاً أو تكاد على الميسورين، صارت اليوم في متناول جميع المعنيات بها. دخلت بلدان آسيا المنافسة وأغرقت أسواق العالم بالسلع ذات الأسعار الملائمة لمختلف

القدرات الشرائية. قبالة البوتيكات التي تبيع أشهر الماركات العالمية ستُعرض على الأرصفة نسخ لها «مزوّرة». مما اضطر وزارة الاقتصاد أن تصدر قراراً يجرّم التعامل بالنسخ المزوّرة. طبعاً حماية للمستهلك «الأصلي»!

السلع الآسيوية أنعشت «ديمقراطية» الملبس التي كانت تسير على استحياء.وساهمت في تذويب الفوارق في الأزياء، كالتي كانت تميّز ملابس الفقراء عن الأغنياء وملابس الكبار عن الصغار والرجال عن النساء. تأنثت الطفولة قبل الأوان ولبست الصغيرات ما تلبسه أمهاتهن من تنانير ضيقة وجوارب نايلون وأحذية ذات كعوب. وغدت باربي ذات الأنوثة المفرطة والثمن الباهظ، مشتهى كل طفلة. وإزاء طغيانها بهتت اللعبة القديمة ذات البراءة «البائدة». واستجابت فبارك أدوات التجميل لمتطلبات الأنوثة المبكرة فصارت تنتج مستحضرات خاصة بالصغيرات. كما لبس الصبيان الصغار الجينز وانتعلوا أحذية مماثلة للتي ينتعلها آباؤهم أو أبطال الباسكيت. وارتدت المرأة البنطال الذي كان في عقود ما قبل الخمسينات مستحيلاً لغير المتنكرات. واقتداءً بالجسم الذكوري، نزل خصر بنطالها إلى الوسط يشد عليه رافعاً لحمه المكتنز إلى الخصر مشوهاً الشكل الذي لطالما تغزلت به القصائد. من ناحية أخرى تأنث المظهر الخارجي لبعض الرجال، إن لجهة ألوان الأزياء أو القصات ضيقة الخصر أم لجهة نوع الأقمشة والإكسسوارات وطول الشعر والوشم والأقراط والحلي والماكياج وعمليات التجميل، ومشاركة الشبان في انتخاب «أجمل شاب» أو أكثرهم أناقة. كانت جدتي حين تتحدث بيوم القيامة تذكر، طبعاً وهي ترتعد بالخوف، «من مؤشراته أن النساء تتزيا بزي الرجال والرجال يتزيون بزي النساء!».

للأزياء نماذج ومثل عليا يُقتدى بها. هناك عالم بأسره، متعدد الشبكات يساهم، بزعامة شركات الإعلان، في خلق النموذج الفصلي للملابس وتوابعها. في ما مضى كانت المجلات الفرنسية ومن بعدها اللبنانية هي المروّجة الرئيسية للموضة في لبنان قبل أن تقتحم شاشة التلفزيون البيوت. وكانت الممثلات وعارضات الأزياء، هن رائدات الموضة؛ تحذو حذوهن سيدات المجتمع المرموقات. كان ذاك عصر النساء المتزوّجات، سيدات الموضة ومستهلكاتها الرئيسيات قبل أن تقتحم العازبات خشبة المسرح. هؤلاء اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، يتبعن أهواء الموضة حتى وإن جاء الهوى على حساب الصحة. كثير من الأهالي يشكون من

«أنوركسيا» مراهقاتهم. كيف لا ومثل هؤلاء الأعلى عارضات أزياء مراهقات مثلهن، نحيلات شاحبات ممنوعات من الطعام أو فاقدات لذته. يظهرن على خشبة العرض، بسيقان هشة وأكتاف مقوسة وأذرع رخوة، مثل مسرنمات حزينات ومفرغات من الرغبة؛ كأنما فاقدات سلطة الأمر والنهي على أرواحهن وأجسادهن. يمشين بأقدام متشابكة تشابكاً غير مفهوم، اللهم سوى في إطار الإصرار على «الدمغة» التي تميز خطى العارضة من مشية سائر خلق الله. كانت مشية مثل هذه ستبدو إعاقة تستوجب العلاج لو سار بها أحد في دنيا الواقع!

لا يقتصر الاهتمام بالأزياء على جنس واحد، وعلى الرغم من ذلك تبدو الإناث أكثر شغفاً بالموضة من الذكور وأكثر عرضة لأهوائها وتحمّل أعبائها. فيما يميل الرجال للاستثمار في السيارات تجنح النساء إلى «التبضع». كثيرات يذكرن للمذيعات أن هوايتهن المفضلة «الشوبنغ» وأن هذا يساهم في إزالة التوتر النفسي. ولا تخفي المرأة شغفها بالمصاغ مما يفسر احتلال المجوهرات مساحات واسعة في إعلانات المرئي والمكتوب. حتى أن بعضها يرفع امتلاك المصاغ إلى مرتبة الحقوق الأساسية للمرأة.

«المصاغ أيضاً حق» أو «مصاغي هو حق لي»

(Le bijoux est aussi un droit)

(Mon bijoux est mon droit)

يقول الإعلان بصوت ذكوري رخيم(للإعلان الأول) أو بصوت أنثوي متأوّه (للثاني) تلازمه مؤثرات سمعية وصدى عميق يمنح «هذا الحق» هيبة السلعة وتجذّرها في العادات وفي المتخيّل! إنها للأنثى التي باتت اليوم أكثر من أي وقت مضى موضوع الغواية وحاملة رسائلها. رسائل غالباً ما تصبّ في الوجاهة الاجتماعية للعائلة والزوج. حتى يمكننا القول إن الشغف بالأزياء في العصر الحديث، وإن لم يكن حصرياً في الأنثى، إلا أنه يبدو مسألة أنثوية بامتياز.

بلاغياً، لطالما عبرت اللغة ومفرداتها عن الظواهر باختصار الفائض من الكلام. ولعل كلمة «الضهور» في اللهجة اللبنانية والتي تعني الخروج من المنزل خير دليل على الدور الأساسي للزي، ألا وهو الظهور به في العامّ. وعن فتاة محجبة كان يقال «مخبيّة» عكس كاشفة أو سافرة. ولما كان الخباء ملزماً في حقبات ما كانت عبارة فلانة «انخبت» وفلانة «ما انخبت بعد»، ترد كثيراً على الألسن. اليوم يقال تحجبت.

والحجاب يحجب عن الأعين عكس «الضهور». على أن كلمة مخبيّة «مخبأة» تتجاوز الأولى تشدداً. كون «تحجبت» تفرض ضمناً إمكانية «الضهور» بالحجاب، بينما «انخبت» قد تعني أنها لازمت البيت. من باب «الضهور» أذكر الحادثة التي جرت مع جدي وكانت في طفولتنا موضوع تندر. فهو حين «ضهر» أوائل القرن العشرين بالطقم الإفرنجي في شوارع صور قوبل سلوكه بالاستنكار. كيف يشذ رجل مسلم محترم عن القاعدة و«يضهر» أمام الناس بزي قليل الحشمة يبرز تفاصيل جسمه؟ لن يلبث رجال كثيرون بعد ذلك أن يحذوا حذو جدي المتمرد. لكن، بعد دخول الحلفاء المنطقة سيُطوى تمرد الصوري المسلم في دفتر النسيان. على أن اهتمامي بدلالات الأزياء تعزز بحادثة أخرى جرت لي أوائل الثمانينات: بعد عودتي من فرنسا إلى بيروت كان لدي موعد في مبنى الجامعة التي درسنا فيها (الأونسكو) وملأنا أرضها بالمظاهرات. أثناءخروجي من الموعد لفتني ذاك المشهد: ثلاث فتيات يرتدين الزي الأسود القديم الذي كانت ترتديه جدتي وعماتي في صور! يتمازحن ويتضاحكن. المفاجأة أدهشتني قبل أن أفترض أن ما أراه لا يعدو كونه مشهداً من فيلم يصور حياة المدينة في مطلع القرن العشرين؛ وأن الممثلات يأخذن استراحة يتابعن بعدها التصوير الذي سأكون شاهدة عليه ما إن يقول المخرج «أكشين».

لكن...لا مُخرج، لا كاميرات ولا تمثيل!

كانت أمّي وبعض الطليعيات من جيلها في الأربعينات قد تمردن على هذا الزي الذي يقال عنه «تركي» واستدلبنه بآخر أكثر بساطة، أي «المعطف». لا ريب في أن تمردهن جاء تجاوباً مع الموضة الجديدة التي، بقدوم الفرنسيين، عمت لبنان بديل الزي التركي التقليدي.الزي الذي ساد لفترات طويلة والذي كانت تخرج به سيدات الطبقة العليا والوسطى في المدن. وذلك قبل أن ينتشر وتلبسه نساء القرى ثم يختفي أو يكاد. يقال إن المدن تفرض على نسائها شروط الكشف والستر كما يفرض الريف شروطه. لا غرباء في الريف وناسه يعيشون عيشة عائلة ممتدة. والريفيات بطبيعة عملهن في الحقل كاشفات. لذا فإن زياً كهذا، وبالنظر إلى كلفته، يعتبر رفاهية غير ملائمة. في المدن، صحيح أن المرأة لا تعمل لكنها تخرج ربما يومياً من البيت في شوارع مدينة هي معبر للغرباء. وفي خروجها قد تتعرض لهؤلاء. عليها إذن بزي محافظ. في اليمن تأكدت لي صحة هذا التفسير وشهدت من جديد تباين حجاب المدن وحجاب الأرياف. كما تأكد لي أنه كلما اتسعت المدينة

جغرافياً استوعبت النمط الريفي والعكس أيضاً صحيح. الريف يقتحم المدن بشرياً؛ يفرض شروطاً ويستوعب أخرى في حركة تبادل دينامية.

تتقاطع الأزياء، تتشابه وتختلف باختلاف المناطق والمذاهب. فإذا كان زي مسلمات المدن موحداً في حقبة طويلة من الزمن، كان زي مسيحياتها مختلفاً. ولطالما ذكرت جدتي أن مسيحيات جيلها كن في مدينة صور يلبسن إزاراً طويلاً أزرق اللون يغطيهن كاملاً وقلّما كن يكشفن وجوههن. ولفترة تاريخية طويلة بعد ذلك كنّ يضعن غطاء على الرأس لا سيما في ذهابهن إلى الكنيسة. جدتي، في تشجيعها لي على لبس «الإشارب» كانت تقول: يا بنتي، الخوري طلب من بنات الكنيسة أن يضعن أيقونة أو صليباً، وإلا كيف يمكن لعازب مقبل على الزواج أن يعرف ديانة فتاة قابلها وأعجبته؟!

كان حجاب الشابات في الخمسينات مختلفاً عما تلسبه أمهاتهن. في صغري، كانت شقيقاتي مثلي الأعلى بزيهن. بالفساتين الضيقة والأحزمة التي تحيط بالخصر النحيل والجوارب النايلون والإكسسوارات والأحذية ذات الأكعاب الرفيعة والحقيبة الصغيرة التي توضع في طي الساعد. كان من شأن ملابسهن الجذابة أن تضع الحد الفاصل في ذهني بين الأزمنة. كان يخيل لي أن هؤلاء يحتكرن الصبا والأنوثة، والمحجبات بالزي الأسود الشيخوخة وإنكار النفس. حتى الشابات منهن كن يبدون لي بالزي الأسود عجائز فاقدات الأنوثة ينتمين إلى الزمن ذاته: زمن الحجاب بالأسود. كان في خلدي أن القدر قد قسم الأدوار فجعل فيها أمهات جدات وعمات قدرهن أن يلبسن الزي التركي، وشابات نحيلات الخصر غاويات ورشيقات حين يمشين على الكرّوسة (الطريق المسفلت نسبة إلى كاروسّ) بالكعب الرفيع تحدث أحذيتهن تكتكة ناعمة لا شأن للعجائز بها، تِك تَك تِك تَك. نغمة تحاكي حركة الجسم الأنثوي الذي يميل إلى هذه الناحية وتلك.

سيزداد انبهاري بالشابات الجديدات حين بدأن ينزعن الحجاب. في مستهل الخمسينات بادرت نادية، صديقة أختي، وبدعم من أبيها ونزعت حجابها. في تلك الآونة خُطبت لشاب ينتسب إلى الحزب القومي السوري الذي كان سباقاً إلى كسر جمود التقاليد وانكماش الطوائف. بزواجها صارت نادية شبه داعية للسفور. على أن التطور السريع وصعود الحركات اليسارية والقومية الأخرى سرق من نادية دورها النضالي دون أن يبخسها حقها في الريادة.

من صفات العصر الذي نعيش فيه تسارع الإيقاع. ما إن بدأ الحجاب يتوارى في أوائل الخمسينات حتى انقلبت الموازين. وبقدوم الستينات اختفى أو كاد، وصارت غالبية الفتيات سافرات. وصار الإشارب موضة بائدة أودعتها الأنوثة الجديدة زمن الجدات، بلا رجعة. أو هكذا خُيّل لهن. لم تعد تلقى في مدينة صور وحتى في جوارها الريفي، شابة محجبة أو نصف محجبة. ما إن تتزوج الواحدة حتى يكون شرطها لزوجها، أو شرط زوجها عليها، خلع الحجاب. قريب لي أحب فتاة واشترط عليها أن تنزع الحجاب إذ «لا يعقل، هو الشاب اليساري المتنور أن يسير إلى جانب زوجة ما زالت تلتزم بالتقاليد القديمة». يضحك ويقول: ماذا سيقول الرفاق عني؟ استصعبت الفتاة الفكرة. إنما والزواج من طالب اليد فرصة لا تُعوض وافقت. تقول أسماء، إنها حين خرجت من بيت أهلها بلا الإشارب الذي اعتادت عليه منذ أن كانت في الحادية عشرة من عمرها، كانت تشعر برأسها عارياً فترفع كفها بحركة تلقائية لتغطيه. لزم أسماء وقت طويل لتعتاد على رأسها العاري. لزمها أن تقص شعرها كي تعتاد لاحقاً على كشفه. ولطالما ترددت عبارة «أخلعها» الحجاب كلما تزوجت فتاة؛ تتزوج لتُزف بفستان مكشوف الكتفين والظهر. وقد تُزف في فندق وحفلة كوكتيل مختلطة. لو غبتَ عن المدينة في تلك الفترة سنوات قلائل وعدتَ إليها لظننت نفسك تدخل مدينة أخرى. استبدلت فيه الشابات الإشارب بالميني جوب. وقُصّرت الأكمام في فصل الصيف. أو ألغيت. ما عادت المقارنة تحدث بين سافرة ومحجبة، بل بين من تلبس بكم أو بدون كم. والدة صديقة لي طلبت مني ألا آتي لزيارتهم بدون كم. منذ الستينات لم يبق من محجبات في المدينة سوى كبيرات السن. لو ألقينا نظرة سريعة على توثيق المظاهرات في صور أو غيرها من المدن لوقعنا على شابات يهتفن ضد إسرائيل والظلم والاستعمار بملابس تتراوح بين القصير والهيبي والميني أو البنطلون. قبل أن يصبح الجينز سيد الملابس «الكاجويل». لن تجد في رحلة باص من لا تلبسه. لو كان الناس يخضعون لنظام توتاليتاري يُلزمهم بتوحيد الزي لما امتثلوا هكذا! لأسياد الموضة، على ما يبدو، سلطة خفية لا تقل وطأتها عن سلطة الأنظمة المستبدة السافرة الوجه. في تلك الفترة طرأت تعديلات على مظهر الشبان أيضاً لا سيما اليساريين والهبيين. كثيرون يطلقون اللحية اليسارية الثورية أو الشاربين تشبهاً بتشي غيفارا، لينين أو ماركس. والبعض يطيل شعره أو يتركه منفوشاً بلا تمشيط تعبيراً عن انشغاله «الوجودي» بما يتجاوز الاهتمام بتوافه الأمور.

سحر الأنوثة العنيف: ضريبة الموضة

في السبعينات عرفنا الصابو ذا الكعب الشاهق السميك. كنت في باريس حين جاءتني صديقة، شديدة الحماسة لحرية المرأة، تنتعل مثيله حاملة طفلتها على ذراع وباليد الأخرى تجر عربة الطفلة. معاناتها في ركوب المواصلات كانت ذكرتني بأحذية الصينيات الصغيرات، اللواتي كي يغوين الرجل حين يكبرن، عليهن لجم القدم عن النمو في الصغر.

ماذا عن أحذية الشابات الحالية؟

كعب رفيع شاهق ومقدمة رفيعة. يرى البعض في هذا الطراز رمز الأنوثة الصارخ شأنه شأن حمّالات جوارب النايلون (الجارتيل) التي كانت تظهر فيها الممثلات والعارضات قبل الستينات. الحذاء الأنثوي هذا يبدو لي حاداً، عدوانياً ينطق بسحر أنثوي عنيف. شأنه شأن تقليعات الشعر مثل التمليس أو التجعيد التي تتطلب مشقّة في تحقيقها. بظهور تقليعة الشعر الأجعد نعمت صاحباته بالراحة والأخريات بضريبة السير في الطريق العكسي. في الفترة ذاتها بدأت الميني جوب تتزحزح من موقعها النافر في عالم الأزياء لتأخذ الفساتين والتنانير الطويلة الفضفاضة مكانها، بما يوحي بإهمال متعمد؛ تعزّزه مستلزمات التنورة الغجرية مثل الصندال والإكسسوارات الهندية. وقد تلازمت هذه الظاهرة مع موجة الهبيين. مثل هذا الزي وجد إقبالاً كبيراً لدى اليساريات وذوات الأفكار التحررية، لا سيما اللواتي أمضين قسطاً من دراستهن في الخارج. في الوقت الراهن، حيث كل شيء يتفاقم، تتفاقم ضرائب الجمال. نرى بعض الشابات قبل الشيخوخة بعقود طويلة يسعين لتغيير «اللوك»، متشبهات بهذه أو تلك من المطربات.

خارطة الأزياء وخارطات أخرى

من الملفت في الظواهر الثقافية الاجتماعية، تلازم بعضها والبعض الآخر تلازماً، مهما بلغت عشوائيته، يحمل دلالات ينبغي التوقف أمامها. إبان سيادة الحجاب القديم، كانت مدينة صور على شاكلة زمنها محجبة؛ كان هناك فصل كبير وإن لم يكن تاماً، بين العامّ فيها والخاصّ. العامّ هو السوق التجاري وهو رجالي بامتياز وإن كانت النساء تعبره والفتيات في مشاويرهن وذهابهن إلى المدرسة. في العامّ كانت المقاهي القليلة يرتادها الرجال فقط. وكانت صور لجهة عمرانها أسوة

بنسائها «مخبية». بيوتها متلاصقة حيث البيت يحاذي البيت، تاركاً ممرات داخلية يستحيل على السيارات ولوجها. كانت وسائل النقل تقف خارجاً «على البوابة». ما الذي يجعل المدينة تتكور على نفسها هكذا وتنسحب إلى الداخل وأهلها ينسحبون إليه آماداً طويلة بعد انتهاء عصور الفوضى والقرصنة؟ كما كنت أتساءل عن علاقة المدينة وأهلها بالبحر. كأنما تدير له ظهرها! علاقة الناس بالبحر كان أساسها السعي للرزق. وحدهم الصيادون كانت علاقتهم بهذا الأزرق اللانهائي متصلة. والصيد عالم ذكوري لا علاقة للنساء والفتيات به. في قبل الخمسينات كانت نادرة المنازل التي تخالف التشكيل السائد وتخرج من الكتلة الحجرية الأمّ إلى الضواحي شأن المنزل الذي كبرت فيه، والذي كان يطل على البحر. أظن هذه الإطلالة كانت هي رافد تساؤلاتي حول دلالة المكان. الملفت أن الفترة ذاتها التي شهدت نزع الحجاب شهدت تغير العمران وبدأت المدينة تخرج من خبائها. قبالة الشواطئ الثلاثة التي حباها الله بها بدأ السكان يشيدون المنازل والعمارات. نتج عن هذه «الهجرة» تشكيل جديد لمدينة صور؛ من المؤسف أنه جاء لحد كبير عشوائياً، بالنظر إلى غياب تنظيم مدني جاد وتعسف الحروب والضربات الإسرائيلية التي تدمر ما شاده الناس. على أن التشكيل الجديد أتى لحد كبير على صورة الثقافة الجديدة التي أنتجته.أقيمت الجسور بين الخارج والداخل. ونَعم السكان برؤية البحر وكثرت الأماكن العامة وانتشرت مقاهٍ جديدة ومطاعم مختلطة جنباً إلى جنب مع المقاهي التقليدية التي تكتظ بالرجال من هواة النارجيلة ولعب الورق. صارت الفتيات والسيدات يرتدن الأماكن العامة بمفردهن أو مع أصدقاء وصديقات. تواكب هذا التحول مع الثورة التي شهدتها سوسيولوجيا الثقافة والتعليم. فقد انتشرت المدارس في أقصى أطراف القرى وأسست الجامعة اللبنانية وجامعات أخرى فتحت فروعاً في المحافظات. وفي الثمانينات، ورغم الحربين الأهلية والخارجية، جاء تصنيف لبنان في تقرير التنمي البشرية، ولجهة التعليم والصحة، في المرتبة الثانية بعد الكويت.

أما العاصمة بيروت فقد اتسعت، وانتعشت المقاهي التي ترتادها نساء وخرجت فتيات الجامعات إلى العامّ، وصار جلوسهن في المقى مسألة روتينية لأخذ الاستراحة، على الرغم من أن كلمة «الداون تاون» التي صارت مرادفاً لحياة المقاهي لم تكن قد انتشرت بعد. وفي أواخر الخمسينات نشرت ليلى بعلبكي مؤلفها الشهير «أنا أحيا» الذي يصور حياة بطلتها وارتيادها المقاهي لمقابلة أصدقاء لها ومن بينهم رجل أحبته.

رؤية تحليلية

١. مضمون الزي ولغة الجسد؟

مهما بحثنا في ظاهرة اختفاء الحجاب، سنقول إنها تزامنت مع التغير الثقافي السياسي الذي شهدته المنطقة، ومع انتشار الأفكار الجديدة ونهوض الأحزاب القومية واليسارية وسائر حركات التحرر التي اشتعلت في العالم العربي. وليس من ضروب المصادفات أن أول جيل انخرط في العمل السياسي وشارك في المظاهرات هو نفسه الذي نزع الحجاب ولبس الميني جوب، هاتفاً للمناضلة جميلة بو حيرد، وبسقوط الاستعمار وزوال إسرائيل.

بالإشارة إلى «المشهد السينمائي» الذي توهمت حضوره أعلاه، أوضح أن ما لفتني آنذاك ليس «عودة الزي» وحدها، بل سلوك المتزيّيات به. تعبيرهن الحركي. لغة الجسد التي تستخدمها هؤلاء الفتيات بين ضحك ومعابثة. تلحق الواحدة منهن بالأخرى لتنزع منها ملفاً أو كراسة. معابثة يبدون فيها متحررات من أثقال كثيرة كانت تنوء بها مثيلاتهن اللواتي سبقنهن إلى لبس الزي نفسه بأكثر من نصف قرن. حركات أبعد ما تكون عن «الحشمة» القديمة والجمود المبالغ به في التعبير «الحريمي». لم تكن هؤلاء من «الحريم»، بل فتيات حديثات مثل قريناتهن لابسات الجينز. كانت جدات هؤلاء حريماً بالعنى التقليدي. في سيرهن في الطريق العامّ يشبكن أذرعهن تحت الكاب ويسرن سيراً رصيناً نمطياً، مستخدمات الحد الأدنى من الحركة اللازمة للسير. لولا ذلك لقلت يتحركن في أماكنهن. إذا ما التقت الواحدة منهن بالأخرى لن تندفع إليها اندفاع هؤلاء الشابات، بل ستقترب منها ببطء. كان يلزمها وقت لتتأكد أن الشارع يخلو من رجل يمر بالمكان، خلو يتيح لها فرصة «السلام الآمن». إذّاك فقط كانت سترفع منديلها لتخاطب زميلتها «وجهاً لوجه». لن تلبث تلك «الحرمة» أن ترمي المنديل على وجهها وتتابع سيرها النمطي المحتشم. كان للزي سلوك ملازم له. كان هو وزمنه واحداً. اللغة «في المشهد» غيرها تلك والإناث هؤلاء غيرهن أولئك. الزي هو نفسه لكن مضمونه تغيّر. ذلك أنه من غير المعقول لأي مضمون أن يتكرر. وهو إن تكرر يستحيل أن يكون طبق أصل لما سبقه.

٢. ملابس الغواية

في هذا السياق ماذا عن ملابس الغواية؟ هل هي ذاتها لجهة المضمون والدلالات؟

حين أتفرج على صُوَرٍ أُخذت لنا في فترتي الستينات/السبعينات، يبدو لي الميني جوب، لجهة الأنوثة، مناقضاً لرسالته الظاهرة، أي الغواية التي تعززها اليوم ملابس باربي. فعلى الرغم من جرأة الزي، إلا أنه كان يحوّل المرأة إلى فتاة صغيرة نحيلة وملساء الصدر. منزلة ما بين الصبيان والبنات. وحين استبدل الميني بالبنطلون ازدادت صفة اللاأنوثة وكادت حمالات الصدر السميكة المحشورة تتوارى من البوتيكات قبل أن ينقلب الوضع إلى ما نعرفه الآن، حيث تبالغ الموضة في إبراز الأنوثة؛ وتتدخل عمليات التجميل لترميم النواقص من خلال حشو الصدر والأرداف ورفعها. ناهيك عن نفخ الشفتين. وتأتي الملابس الحريرية أو الجرسيه لتلتصق بالقوام وتبرز انحناءاته ومفاتنه، مؤكدة على أن الأنوثة اليوم صارت مشتهاة في صورتها المفرطة! وخير مثال على ذلك يأتينا من المقارنة بين اثنتين اعتبرت كل منهما في زمنها رمزاً جمالياً خارقاً: «جورجينا رزق» التي انتخبت ملكة لجمال الكون في أوائل السبعينات؛ و«هيفا» التي هي اليوم أشهر من أن تُعرف. ففيما تبدو الأولى في الصور أشبه بطفلة غارقة في عالمها الطفولي الجوّاني وكأنما فاتها أن تستيقظ من سبات جمالها العميق، وحين استيقظت ارتسمت على ثغرها ابتسامة فيها من التساؤلات والاستعطاف أكثر مما فيها من «وجهة نظر» إزاء الدنيا أو المستقبل الذي هي مقبلة عليه. وفي ما عدا مايوه المسابقة نراها في الصور في ملابس مألوفة كي لا أستخدم كلمة محتشمة، تشبه ما كانت ترتديه أي فتاة أخرى أو سيدة. فيما تُقدم هيفا، رغم أغاني الأطفال، غواية الأنثى المتمكنة من فن الغواية في «أبهى صوره». متمتعة بالإضافة إلى جمالها الأصلي بإرث إغرائي مدروس «ووجهة نظر» إغوائية واضحة، خاصة بها، تضعها في مصافّ شهيرات الإغراء من أمثال مارلين مونرو أو جين مانسفيلد؛ تستحق بجدارة أن تظهر في فيديو كليب برفقة نمرة وبملابس رومانية، تلاعب أميراً على حلبة صراع. سترمي بالنَّبل هذا الذي يقاوم الاستسلام لغوايتها!

للإفراط في الأنوثة تبعات ولغة جسد تجعل غالبية المطربات يظهرن في وضعية نمطية: نظرة دلع جانبية (بروفيل) تؤكد الغواية والبراءة معاً، تدعمها حركة طفولية من الكتف تحاول في معرض القبول في معرض الرفض. ووقفة إغراء تجعل الصدر شبه العاري أكثر بروزاً والأرداف أكثر استدارة والشفاه مرفوعة كأنما تتأهب لقبلة! في عالم الغواية هذا يحلو للمطربات «الوضع الأفقي»! على الأوتستراد الممتد بين بيروت وصور، تطالع المسافرين ملصقات عملاقة لعارضات «مسطحات»

بفساتين ضيقة أو ملابس داخلية أو جينز لاصق كما لو كان من البويا. «مسطحات» شبه نائمات بشعر طويل يرقد إلى جانبهن. طوال رحلتك تطالعك مثل هذه الملصقات جنباً إلى جنب مع إعلانات المدارس والجامعات، مع صور المرشحين للانتخابات ومن فاز بها، مع صور رجال الدين في الجبة والعمامة واللحى والنظرات الوقورة. وبالطبع جنباً إلى جنب مع شهداء وشهيدات المقاومة، المحجبات منهن وغير المحجبات. لو تُرجم هذا المقال إلى الفرنسية فسأضطر لإلغاء كلمة «مسطحات»، (Les horizontales) التي في الفرنسية الدارجة تعني ممتهنات البغاء.

٣. تثمين الجسد والتقاء النقائض

يحتدم التنافس اليوم بين الكشف والستر، احتداماً يجعلنا نقع على ستر متطرف وكشف متطرف. فالحجاب لم يتمكن من توحيد المشهد في لبنان؛ لا لأن نصف اللواتي يعبرن الشارع غير مطالبات به(دينياً) بل لأن مسلمات كثيرات غير مقتنعات بذلك. إن كان على أي باحث أن يتوقف عند أطراف النقائض فلأنها تظهر ما يخفيه المألوف. يشكل كل من الحجاب بالزي التركي أو معادله (الشادور)، والملابس العريانة طرفي النقيض. وإذا ما بدا من السهل تعريف الحجاب نظراً لأن شكله يدل على مصطلحه وحدوده، يبدو تعريف الملابس «العريانة» ملتبساً بعض الشيء. لنقل إننا نقصد بالعريان هنا لا المكشوف فقط مثل زي البحر المخصص لمتعة السباحة، بل المكشوف الذي من شأنه تحقيق غاية أخرى، أي الغواية.

قد يبدو غريباً القول إن بين الحجاب المتشدد وأزياء الغواية في لبنان قواسم مشتركة على الرغم من اختلافها الجوهري.

- كلاهما يحمل قدراً كبيراً من التطرف؛
- كلاهما مستحدث، بدأ في الانتشار منذ الثمانينات على وجه التقريب.
- كلاهما، في مواجهة متلقٍّ لم يألف الزي بعد، يفتقد إلى التلقائية.
- كلاهما يخرج عن تحقيق الأمان والراحة لصاحبته. «التركي» خانق لجهة الطقس و«ناكر» لجهة الهوية؛ والغاوي يخرج صاحباته من دائرة الرفاه إلى دوائر أكثر صعوبة وتعقيداً سنعرضها لاحقاً.
- كلاهما غير حر من الأهداف. يبغي موعظة ما أو يحمل رسالة تواجه «النمط المغاير». ما يمكن تسميته بالذريعة «النضالية». نفوس الملتزمات عامرة بثقة

الانتماء إلى جماعة ذات رؤية دينية أو سياسية أو الاثنتين معاً، والغاويات معتزات بالدفاع عن حرية النساء وتحرير الجسد من عقاله القديم. وهكذا، بين واثق من أنه يمسك بمفاتيح الآخرة، ومعتد بإمساكه جنة الدنيا، يشطح كلا الطرفين في تثمين الجسد، واعتباره أغلى ما تملكه المرأة. وعليه لا بد إما من تغطيته كاملاً منعاً للغواية، أو التباهي بعرضه تحقيقاً لها.

ستنعكس هذه الرؤية على الأدب. ستطير في الآفاق شهرة روايات تحكي لغة الجسد وتصرخ برغباته. ستُهرّب نسخ من هذه بالآلاف إلى بلدان منعت فيها، وسيغدو كتّابها وكاتباتها أشهر من نار على علم، لا بالضرورة لقيمة ما كتبوا، بل لجرأة لسان وأحوال أبطالهم ممن تفننوا في جعل الخاصّ عامّاً بكشف الحميم وفضح «المسكوت عنه».

في معرض التباهي بالشكل، ينحرف المايوه كما ذكرت عن غايته الأصلية ويغدو زياً لاختيار وتتويج ملكات الجمال. في هذا عنصر دخيل وثقيل هو عين اللجنة الفاحصة. وشروط لا تقل عنها صعوبة: إخضاع الجسد لمعايير مرسومة سلفاً حسب نموذج جمال غربي وشديد النخبوية حتى في أوروبا ذاتها. كثيرات يلجأن إلى عمليات التجميل للفوز بأنف أو قوام هذه وتلك؛ وبسباق هو جزء من منظومة تثمن شكل المرأة وتروج لهذا التثمين عبر مباريات غايتها الأخيرة التسويق؛ في حال الفوز ستوضع «الملكة» في خدمة السلع: سلع الماكياج والمصاغ والسيارات وسائر «حقوق» النساء الاستهلاكية. هكذا، بين المحطتين، المحلية والعالمية، ينطلق قطار الترويج في أبهى حلة! من السذاجة الزعم بأن القطار يأخذ سعادة المروجات في الحسبان. كثيرات يُصَبْن عند الاستبعاد (أو عند نهاية الخدمة الملكية) بأزمات نفسية. حين ينتهي الاستعراض على الخشبة وتقرر اللجنة الفاحصة النتائج وتُستبعَد من لم «تلبِّ الشروط»، وينطلق القطار بدونها، ماذا يبقى غير السقوط في الفراغ الطلق؟

٤. الحجاب الجديد: حجاب سياسي مأزق ثقافي

أ. شاطئ صور شاهداً

على ضوء ما ورد، هل يمكننا القول إن انهيار الحركات السياسية السابقة كان سبباً في عودة الحجاب؟

إن لم يكن الأمر بهذه البساطة أمكننا على الأقل الجزم بأن عودة الحجاب تزامنت مع المأزم السياسي الذي يقبض على العالم العربي والإسلامي؛ ومع انهيار الحركات والأحزاب الوطنية واليسارية. هذه التي منذ نهوضها وهي تتلقى الهزيمة تلو الأخرى. في طليعتها ما مني به العرب عام ٦٧ ومن ثم احتلال العراق. بين هذا وتلك منوعات من غزوات إسرائيلية متتالية على لبنان، واحتلالات مكوكية لأراضيه تُوّجت بغزو عام ٨٢ الشهير. هذا الذي أخرج المقاومة الفلسطينية في تابوت سفينتها تاركة «أبناءها» المناصرين، يلملمون أشلاء فشلهم ويواجهون عدواً هو من أكثر المحتلين صلافة في العصر الحديث. في غزو ٨٢ أجبر الإسرائيليون سكان صور (وسكان صيدا أيضاً وسكان المخيمات) على الخروج إلى شاطئ الاستراحة من أجل «التمشيط»؛ تحت التهديد بأن كل من يلازم بيته يعتبر مقاوماً، قاتلاً، وبالتالي مقتولاً، ومنزله مهدوماً. خرج الناس إلى الشاطئ مرتين: مرة رجالاً ونساءً وصغاراً، ومرة رجالاً فقط. آلاف الرجال من سن الثانية عشرة إلى سن الخامسة والثمانين خرجوا قسراً من المنازل في اليوم التالي للغزو، إلى شاطئ الاستراحة؛ حيث أُمروا بالركوع بحجة تسهيل السيطرة عليهم. آلاف الرجال ركعوا أمام ضباط الجيش الإسرائيلي ودباباته. لا غرابة أن يخرج من هذا المكان على الشاطئ...ومن هذا الركوع الجماعي المذلّ، مقاومة جديدة. على أن المقاومة الجديدة جاءت بزي آخر وشعارات أخرى غير التي تبنيناها نحن اليساريين حلفاء المقاومة الفلسطينية. المقاومة الجديدة لم يكن كتابها «رأس المال» أو «ما العمل»، فلديها كتاب هو «الكتاب». ولن تكون المثل العليا لنسائها «سيمون دي بوفوار» و«آنا فرويد» بل نساء من التاريخ الاسلامي والعربي. ستكون مرجعيتها أيسر وأقرب بكثير من تلك الآتية من الغرب البعيد بلغات أجنبية. المرجعيات موجودة في «الدفاتر القديمة» وما على الناس سوى فتحها و«تجديد» علاقتهم بها. سنرى مواطنات عاديات يقفن في وجه المحتل، بالإشارب «الجديد» هاتفات «أالله أكبر». لو راجعنا مشهد الخروج الأول صيف ٨٢ لرأينا سيدات صور وجوارها يتجهن إلى الشاطئ، كاشفات؛ كان السفور ما يزال سائداً. على أن المظاهرات التي سارت تندد بمجازر قانا في التسعينات وفي القرن الحالي ستؤكد محجباتها على أن الحجاب الذي غادر من نافذة العلمانية قد عاد من الباب السياسي الديني. ستكر المسبحة. نادية، رائدة السفور في الخمسينات، ستخسر تجربتها كما ذكرت لي. فابنتاها قررتا «الالتزام» ولبس الإيشارب. وابنة أسماء أيضاً وقفت في وجه أبيها الشيوعي تعلن عن عزمها لبس

الحجاب. الزي الذي تمردت عليه شابات الماضي ستصبح العودة إليه موضوع تمرد شابات الحاضر. الشبان أيضاً سيغيرون أشياء في مظهرهم الخارجي. ستطول اللحى إنما لا لتحاكي لحية «تشي» أو «ماركس» بل لتحاكي لحى الأئمة والمشايخ من خرّيجي النجف، الأزهر أو إيران. وسنقف نحن قدامى اليساريين واليساريات نتأمل تطور المشهد. كل يحاول تضميد جراحه بطريقته. هنيئاً لمن في وحدته بقي عاقلاً، حر التفكير.

ب. عنف الحداثة الساحر

لا يمكن الزعم أن لعودة الحجاب مغزى واحداً. «إيشارب» اليوم دالّ كثيف المعاني. رمز يعبّر في عودته بامتياز عن المأزق الحضاري الراهن الذي يعصف بالعالم؛ وعن المأزق الذي يفوقه عنفاً ويعصف بالبلاد التي تشعر بأنها مقهورة.

لا ينفصل هذان المأزقان إلا ليتصلا عند نقطة الالتقاء ألا وهي الوجه الآخر للحداثة. على اعتبار أن لهذه نِعماً عظيمة يرتع سكان الأرض في خيرها. على أن لتلك وجهاً آخر رهيباً، كونه مدججاً بسلاحين كلاهما جبار: التطوّر التكنولوجي (لا سيما تكنولوجية الحروب) وسرعة إيقاعه؛ وطغيان قيم الاستهلاك. إيقاع التقدم التكنولوجي يتجاوز إيقاع الرفاه الإنساني بما لا يقاس. وكلاهما، التكنولوجيا والاستهلاك، يمضيان بإيقاع لم تشهده البشرية من قبل. ينظمان لعبودية جديدة في الانصياع للعمل وقيم الاستهلاك. في كتابه البديع «أحلام أب»، وفي أول زيارة له لنيويورك في أوائل التسعينات، يصف أوباما صدمته من جموح الاستهلاك. من سرياليته، من طغيان قيمه وتدفق سلعه، وتزايد إغراءات امتلاكه، امتلاكاً، لا يعرف الحدود، ولا يعترف بالحاجات الحقيقية للإنسان. يصف أوباما إحساسه بالغربة والعبثية إزاء هذا الطغيان. إذا ما كان خوف الذي سيغدو رئيساً لأمريكا ـ من فرط الاستهلاك وقيمه ـ قد بلغ هذا الحد في التسعينات، فما بالك بالخوف الذي يمسك بنفوس الشعوب الأخرى في القرن ٢١، هذه التي تعوزها قدرات الإنتاج والشراء والمنافسة والتماثل؟ أيّ غربة ستقبض على أرواح هؤلاء، في عالم بات مهدَّداً في قيمه وقدراته وحاضر أهله ومستقبل أبنائه؟ بات مهدِّداً لمَن لا ينجح. مَن لا يلحق بركب الـ٥٪ من القابضين على ثروات العالم وأتباعهم. ماذا يبقى للناس سوى أن يلوذوا بأمان عرفوه؟ من كان غير موقن من المستقبل المجهول، سيلوذ بالمعلوم. سيبحث عن الأمان في القيم والتقاليد التي ألف دفأها والتي تكاد قيم الاستهلاك أن

تدمّرها. سيلوذ بها، تحميه من التعسّف والانبهار. أو مما هو أخطر من ذلك: الإحساس بالعجز.

هذه هي غواية الوجه الآخر للحداثة ونشيد إنشاده «نحن» و«أنتم». نحن المصدّرون وأنتم الشارون. نصدّر السلع والتكنولوجيا والسلاح والأفكار وأيضاً الأزياء. وأنتم المستهلكون. مستهلكو السلع والتكنولوجيا والأفكار والأزياء. واستخدام السلاح لديكم هو فقط للإرهابيين.

ويجيب اللازمة صوت آخر:

«نحن أيضاً لنا أفكار وأزياء». زي يختلف عن أزياكم ويتّسق مع أفكار وقيم مغايرة لأفكاركم وقيمكم. «نحن» و«أنتم» أنا وأنت. أنا مختلف عنك، إذن أنا موجود؛ أو «بالنظر إلى أني مختلف فأنا موجود». أما عن السلاح...فشعارنا «يضحك كثيراً من يضحك أخيراً»!

ج. الرهاب من الحجاب

مشهد الأزياء اليوم يحاكي المشهد السياسي لحد بعيد. هكذا دول الأقطاب تصدّر العري ودول الأطراف تصدّر الحجاب. أثناء كتابتي هذا المقال، وصلتني رسالة بالبريد الإلكتروني، من ناشطة كنديّة لا تخفي حزنها ولا خوفها ولا كرهها للإيشارب. في مستهل رسالتها تخاطب «هؤلاء» المحجبات بالحسنى. تحاول أن تهدئ خاطرهن وتواسيهن بأنها هي أيضاً كانت في مطلع شبابها مقهورة من رموز السلطة! لم يخطر لها أن هؤلاء أو غالبيتهن اخترن الإيشارب طواعية. على أن حدس الناشطة الكندية لن يلبث أن ينبهها إلى هذا المغزى، فتسارع إلى تبديل لهجتها. وبالموعظة التي ساقتها بكلمات «مفحمة» ذكرتهن «بإن الإنسان وحده، من دون الحيوانات الأخرى، غطى رأس أنثاه» وهي حين «تراهن» في المدارس تخاف على أبناء «وطنها»، خوفاً يفقدها التسامح.

كتبتُ للناشطة الكندية رسالة جوابية تقول:

قرأت رسالتك وفهمت وجهة نظرك؛ رغم الاختلاف، لدينا أنت وأنا تاريخ نضالي مشترك. فأنا يسارية علمانية مؤمنة وكاشفة. وأنا أيضاً مسلمة، ومثلك أتساءل عن مغزى الحجاب. ولي بشأنه وجهة نظر خاصة. في حال تُرجم بحثي إلى لغة تفهيمنها أرسلته لك. الآن، أريد أن أطمئنك بأن لابسات الإيشارب لا يقمن

بهذا قسراً ولا يشعرن بانتقاص في حريتهن بسببه. قد تستغربين لو قلت لك إن غالبية هؤلاء تشعر بنفسها أكثر حرية من الكاشفات. فمسألة الستر والعري وارتباطها بالحرية، مسألة تبدو اليوم نسبية. لقراءتها رسالتك، ذكرت لي إحدى الرائدات في العمل النسائي، وهي محجبة، أنها حين ترى القاصرات وغير القاصرات، يعرضن صورهن ومفاتنهن في ملصقات الشوارع ومحطات المترو والباص وعلى شاشات التلفزيون، ترويجاً لحمّالات الصدر والملابس الداخلية...تشفق عليهن. وترى في هذه الظاهرة استعباداً للفتيات وإخضاعاً لأجسادهن وأرواحهن إلى قيم السوق وحركة العرض والطلب. ترى ـ وأنا أشاطرها الرأي ـ في هذه الظاهرة شكلاً من أشكال الدعارة التي ينبغي التصدي لها وتحرير النساء من طغيانها. وتقترح أن نخصص مواقع إلكترونية لمحاربتها مثل التي خصصتها أنت لمسألة الحجاب.

تشعرين بالتهديد من انتشاره؟

إذا ما كان الحجاب قد سبب لك هذا القدر من الخوف، فما بالك باستغلال الأنوثة وتدمير سعادة صاحباتها؟ ما بالك بالتحالف القائم بين الاستهلاك والدعارة والذي يزداد قوة وانتشاراً يوماً عن يوم؟ إذا ما سلبك انتشار الحجاب روح التسامح، فما شكل التسامح الذي تتوقعينه من الشعوب «الأخرى»، التي تغزوها جيوشكم. وبزعم «الحرص على الديمقراطية»، تدمر بناها وتقتل أبناءها وتستخدم «خلسة» أسلحة الدمار الشامل، فيما صحافتكم تغمض أقلامها وتنشغل بالكتابة بالخط العريض عن سلبيات الحجاب؟

زميلتي الناشطة، اسمحي لي أن أقدم لك اقتراحا أراه مفيداً: أن نتكاتف جميعاً، من لبست الحجاب منا، ومن لم تلبس، ونبدأ ندرب أنفسنا على البحث في الأمور الأساسية التي تجمعنا، وهي كثيرة. محجبات كنا أم سافرات...نتصدى لأخطار يتفنن في ابتكارها الإنسان، الذي «وحده من دون الحيوانات الأخرى» يتاجر بجسد أنثاه. يبتكر أدوات الدمار! وحده قادر على الكذب وتمويه الحقائق. نتضامن بما يخرجنا من متاهة «الأنتم» و«النحن»، تضامناً تكون غايته الحرية الحقيقية للنساء والرجال، أينما كانوا. تضامناً غايته مواجهة الأخطار التي تدك أخلاقيات أرساها النوع البشري عبر ملايين السنين. وأيضاً تلك التي تهدد النوع ذاته.